

المحاضرة الخامسة: السيرة الشعبية

• الحدّ المفهومي للسيرة الشعبية:

تعدّ السيرة الشعبية لونًا متميِّزًا من ألوان التأليف القصصي العربي، يتقصى حياة وسيرة شخصية من الشخصيات في علاقتها بجماعتها، أو بطل من الأبطال، أو قبيلة أو أمة.

تُعرّف السيرة الشعبية بأنها "حكاية طويلة ذات حلقات عديدة، لها متخصصون يحترفون حفظها وروايتها أمام جمهور مستمع من الكبار والصغار، في الأعياد والمواسم، وكذا الأسواق والمقاهي، فهي زاد الشعب بحقّ، لأنها تجمع بين المعرفة التاريخية السطحية والسمر الفنيّ. وإقبال الناس عليها ناجم عن حاجتهم الماسة إلى الاستقرار النفسي والروحي والعقلي، بين واقع مرير يحيونه وحلم جميل يعتصمون به".

• التعالق النصي للسيرة الشعبية:

للسيرة الشعبية غايات كثيرة: إبداعية، وتواصلية، وإقناعية، وإرسالية، وخطابية، ولذلك لا يستتكمف نصها من تعالقه بنصوص أخرى متباينة نتيجة استعانة خطابها بفنون وعلوم متنوعة؛ كعلم الأنساب، وفنون الشعر، والخطابة، والتراسل. ولذلك فإنّ نصوص السير الشعبية العربية تكتنز كما هائلا من النصوص الغريبة عن بنيتها الشكلية.. غير أنّ المرونة التي تميزت بها السيرة الشعبية، وبخاصة في ناحيتها الشكلية، جعلها تتقبّل تلك النصوص تقبلا فنيا، وكأنها من جنسها وفصيلتها

وللسيرة مجموعة من الخصائص التي تشبه بعض سمات الملحمة في الأدب اليوناني القديم، وسمات الرواية في الأدب الأوربي الحديث.

فالسيرة **طويلة جدا** -أطول من الرواية بكثير- حيث تبلغ آلاف الصفحات، مثلها مثل الملحمة التي تبلغ آلاف الأبيات.

ولكن الملحمة عمل شعري خالص، أما السيرة فعمل نثري مرصع بالشعر، وفيما عدا السيرة الهلالية، فإنّ الشعر لا يستخدم في السيرة لبناء الأحداث أو رسم الشخصيات أو تصوير الصراع، ولكنه يأتي عادة كاستشهاد أو شرح أو تنمة أو تحلية. وهو في هذا يساير طبيعة التأليف العربي الذي يجري على سنة ترصيع النثر بالشعر مهما كان موضوع التأليف.

وكل من السيرة والملحمة يكون البطل فيها شخصية تاريخية -حقيقية أو أسطورية- فهي شخصية معروفة من قبل السيرة أو الملحمة، ومعروف دورها في التاريخ القومي. ولكن السيرة تفتقر عن الملحمة في أنها تتناول حياة هذا البطل بأكملها؛ أي منذ المولد إلى الوفاة، وربما أرهصت لمرحلة ما قبل المولد، وأضافت امتدادات بعد الوفاة. أما الملحمة فتتناول حدثا واحدا أو مرحلة واحدة من مراحل حياة البطل.

وفرق جوهرى بين السيرة والملحمة هو أن السير التي وصلتنا كُتبت في ظلّ الإسلام، لذلك نجد البطل مؤمنا بالله خاضعا لإرادته حتى ولو كانت حياته قبل الإسلام. أما الملحمة فتمثل الحياة العقائدية اليونانية بآلهتها المتعددة، وأنصاف الآلهة، والصراع المحتدم بين هؤلاء والبشر.

فالبطل الملحمي يقف ضدّ إرادة الآلهة، ويعترض عليها بل ويصارعها.

ولما كانت السيرة الشعبية العربية أعمالا قصصية، فإنها تلتقي في هذا بالشعر القصصي في تقسيم أرسطو؛ والشعر القصصي عند أرسطو يشتمل على أنواع هي: التراجيديا (المأساة)، والكوميديا (المهابة)، والدراما. والسيرة الشعبية نجدها تشتمل على مواصفات هذه الأنواع مجتمعة.

إنّ السيرة الشعبية تجمع بين القصة والرواية بالمفهوم الحديث؛ بمعنى أن كل فصل من فصولها يصلح أن يكون قصة قائمة بذاتها، ثم مجموع الفصول يكون رواية متكاملة. ولعل هذا ما ساعد الراوي/القصاص في إلقاء السيرة على جمهور المستمعين ليلة بعد ليلة دون أن يشعروا بملل أو اكتفاء، ودون أن يفتروا عن طلب الليالي التالية. فالراوي كان يسعى جاهدا لإرضاء سامعيه، فيطيل فيما يعجبهم، ويقدم لهم قصة تأسر لبّهم، ثم يختم ليلته بوقفه عند

حدث مثير دون أن يكمله، فيضمن سعيهم إليه في الليلة التالية. ولعلّ هذه الفكرة هي التي أخذتها المسلسلات السينمائية والإذاعية والتلفزيونية الحديثة.

لقد نشأت السير الشعبية كحاجة جماهيرية ملحة تقدّم للشعب غذاءه الروحي. وإذا درسنا الحياة السياسية والاجتماعية للأمة العربية انطلاقاً من القرن الرابع الهجري، فسوف نجد أن ما وقع من تغيرات وأحداث تطلّب بالفعل هذا الإنتاج الفني الشعبي الذي يحتاجه الشعب ويرتاح له؛ لأنه يحمل المضامين والأهداف ما يلتقي بنزعات الناس آنذاك.

والواقع أن القريحة العربية أنتجت عددا وافرا من السير الشعبية، ولكن ما وصلنا منها لا يجاوز العشر هي:

- 1- سيرة عنتر بن شداد
- 2- سيرة الأميرة ذات الهمة
- 3- سيرة سيف بن ذي يزن
- 4- فتوح اليمن - أو رأس الغول
- 5- السيرة الهلالية
- 6- سيرة الظاهر بيبرس
- 7- سيرة حمزة البهلوان
- 8- فيروز شاه
- 9- سيرة أحمد الدنف
- 10- سيرة علي الزنبيق.

يقول فؤاد حسنين: إنّ دور الكتب ملىء بالمخطوطات التي تدل على غزارة الإنتاج العربي القصصي، وأنا كلما أمعنا في دراسة تلك السير تكشف لنا أوجه النقص في دراساتنا للأدب العربي، وأنا قد غفلنا عن قسم من أقسام الأدب العربي الذي يظهر عبقرية الأدب العربي، وغزارة خياله، وقوة إبداعه، وأنه -وفنه- كان الموحى والملهم للأدب الغربي عندما أخذت أوروبا في النهوض مستعيرة الحضارة العربية الإسلامية بكاملها لتبني عليها حضارتها الجديدة. وهذا كله حقّ، فإنّ من يقرأ كتاب (تراث الإسلام) للمستشرق الإنجليزي "جبّ" سوف

يجد فصلاً عن أثر الأدب العربي في القصة الغربية إبان العصور الوسطى، وكذلك فعل المستشرق "جوستاف لوبون" في كتابه (حضارة العرب).

والواقع أن سيرنا الشعبية كانت منهلاً ثراً أخذ منه الغرب الشيء الكثير؛ وعند دراستنا لسيرة عنتر بن شداد نلمح بعض أوجه الشبه بينها وبين أول وأشهر رواية في الأدب الأوربي، ونقصد رواية (دون كيشوت) للكاتب الإسباني "ميغيل دي سيرفانتس" مثلما أثبت ذلك محمود ذهني.

• سيرة الأميرة ذات الهمة:

تعدّ هذه السرية العربية أطول سرية في التاريخ؛ ذلك أن حجم مخطوطاتها المحفوظة بمكتبة المتحف البريطاني ومكتبة الدولة ببرلين بألمانيا الغربية يصل إلى 23 ألف صفحة، وتغطي أحداثها لحروب قارية متصلة لأربعة قرون بين العرب المسلمين من جانب، والتحالف الأوربي البيزنطي، أو كما تسميه السيرة: بالتحالف الرومي من الجانب المقابل، كما تغطي أحداثها حقبة مطلع الإسلام وانتشاره؛ فسيرة الأميرة ذات الهمة تبتدئ أحداثها بأزهى عصور الخلافة الأموية في دمشق، والعصر الذهبي لعبد الملك بن مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، الذي طارده أبو مسلم الخراساني عقب هروبه إلى مصر، إلى أن لحقه واغتاله في أبو صير بمصر الوسطى، مروراً بمطلع العصر العباسي وصراع السلطة المحتدم المتبلور في أزمة أو فاجعة البرامكة الفرس؛ حيث تستفيض هذه السيرة التاريخية العملاقة في إعادة سرد تلك النكبة السياسية بين العرب والفرس. وتنتهي أحداثها في عصر الخليفة العباسي الواثق بالله، برغم أنه يرد ضمن أحداثها وعلى لسان راويها.

إن المتأمل في التاريخ العربي سيلاحظ أن دور المرأة لم يكن دوراً هامشياً؛ فطالما كانت عضواً فاعلاً في مجتمع كابدت فيه الكثير ليُعترف بدورها، ومن بين هؤلاء النساء اللاتي كُتبت سيرتهن بماء الذهب كانت الفلسطينية «فاطمة بنت مظلوم الكلابي» أو «الأميرة ذات الهمة» — كما عرّفها من عاصرها — تلك الفتاة التي خبأها أبوها وحزن لخسارته مقاليد الحكم بولادتها، فلم يكن ليتكهن بأنها ستخوض معاركها بشجاعة وسطاً

الرجال، وستصل بانتصاراتها إلى أسر الإمبراطور الروماني في أوج الحروب بين العرب والروم؛ لتدخل على رأس الجيوش العربية إلى القسطنطينية، وتصبح أكثر ملوك العرب في عصرها سعةً ونفوذًا. هي إذن سيرة ملحمية تاريخية تروي لنا بعض أمجاد الأمة العربية الإسلامية عبر البطلة «الأميرة ذات الهمة» والفارس الداهية «سيد البطال» وخبايا انتصاراتهما معًا.